

الأبعاد السياسية لفهوم الحَاكِمِيَّة
رؤية معرفية

الطبعة الأولى
(١٤١٦هـ / ١٩٩٥م)

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن
آراء واجتهادات مؤلفيها

الأبعاد السياسية لمفهوم الحَاكِمِيَّة رؤية معرفية

هشام أحمد عوض جعفر

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م

سلسلة الرسائل الجامعية (١٤)
(قضايا الفكر الإسلامي)

© جميع الحقوق محفوظة
المعهد العالمي للفكر الإسلامي
هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية

© 1416 AH / 1995 AC by
The International Institute of Islamic Thought
555 Grove St. (P.O. Box 669)
Herndon, Virginia 22070-4705 U.S.A.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Ja'far, Hishām Aḥmad 'Awaḍ, 1964 (1383) —
al Ab'ād al siyāsīyah li mafhūm al ḥakīmīyah : ru'yah ma'rifīyah :
dirāsah naqdīyah muqāranah / i'dād Hishām Aḥmad 'Awaḍ Ja'far.
pp. 288 cm. 22 1/2 x 15 (*Silsilat al Rasā'il al Jāmi'iyah* ; 14)
Originally presented as the author's thesis (master's)--*Jāmi'at al Qāhirah,*
1992.

Includes bibliographical references and indexes.

ISBN 1-56564-204-X. -- ISBN 1-56564-205-8 (pbk.)

1. Islam and state. I. Mujāhid, Ḥūrīyah Tawfiq. II. Title.

III. Series: *Silsilat al Rasā'il al Jāmi'iyah*, 14 (Herndon, Va.)

JC49.J344 1994
320.1'5--dc20

94-31742
CIP
NE

المحتويات

١	تصدير (د. طه جابر العلواني)
٣٩	المقدمة

الفصل الأول

٤٩	النسق القياسي لمفهوم الحاكمية.....
٥١	تمهيد
٥٣	المبحث الأول: الحاكمية في اللغة والأصول
٥٥	أولاً : معاني ودلالات الحاكمية في اللغة والأصول.....
٧٢	ثانياً : ملامح التحيز في التعامل مع مفهوم الحاكمية.....
٨٣	المبحث الثاني : الحاكمية ومفهوم الشرعية.....
٨٥	أولاً: العلاقة بين مفهوم الحاكمية وبين مفهوم الشرعية في الرؤية الإسلامية
١٠٧	ثانياً: مستويات الحاكمية
١١٣	المبحث الثالث : الحاكمية ومفهوم الاستخلاف.....
١١٧	أولاً : التحسين والتقبيح العقليين.....
١٢٤	ثانياً: طبيعة العلاقة بين الحاكمية والاستخلاف.....

الفصل الثاني

١٣٧	الدلالات السياسية والمنهاجية لمفهوم الحاكمية.....
١٣٩	تمهيد
١٤٣	المبحث الأول: الحاكمية والفصل في الخلاف بين الناس.....

أولاً : التعددية في المنظار الإسلامي.....	١٤٥
ثانياً: المعايير الحاكمة بين الثبات والتغير.....	١٥٤
المبحث الثاني: الحاكمية وتحقيق مصالح الناس في الدارين	١٦٩
أولاً: التعريف بمفهوم المصلحة الشرعية وماهيتها.....	١٦٩
ثانياً: طبيعة العلاقة بين الحاكمية والمصلحة الشرعية.....	١٧٦
المبحث الثالث: ضمانات فعالية مفهوم الحاكمية في تقييد السلطة	١٩٣
أولاً: جوهر المشكلة السياسية.....	١٩٦
ثانياً: حل المشكلة السياسية بين النموذجين الغربي والإسلامي.....	١٩٨

الفصل الثالث

مفهوم الجاهلية	٢١٩
تمهيد.....	٢٢١
أولاً: الجاهلية حالة موضوعية أم فترة تاريخية؟.....	٢٢٢
ثانياً: الجاهلية في اللغة والأصول.....	٢٣٠
ثالثاً: مستويات الجاهلية.....	٢٤٠
أ - جاهلية الفسوق والعصيان.....	٢٤١
ب - جاهلية الاعتقاد	٢٤١
رابعاً : مقومات الجاهلية	٢٤٥
١- تصور الجاهلية لله وعلاقتة بالإنسان والكون والأحداث.....	٢٤٦
٢- وضعية التشريع : الاستقلال البشري بإنشاء التشريعات والقوانين	٢٤٧
٣- الجامع السياسي بين حمية الجاهلية ودعواها.....	٢٤٩
٤- سيطرة قانون اللذة والمنفعة.....	٢٥١

الخاتمة

حول الإطار التحليلي المستخلص من تأصيل مفهوم الحاكمية.....	٢٥٣
قائمة المراجع:.....	٢٦١
الفهارس	٢٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

حاكمية إلهية أم حاكمية كتاب؟

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ
بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونصلي ونسلم على سيدنا محمد
خاتم رسل الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهداه إلى يوم الدين.
وبعد:

إن هذا الكتاب الذي يقدمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي كتاب له أهمية
خاصة، فهو دراسة جامعية قدمها باحث شاب أنفق في إعدادها وكتابتها
وقتا طويلا ورجع من أجل ذلك إلى مصادر عديدة متنوعة. وكون هذا
الكتاب «الدراسة» معداً لمعالجة مفهوم «الحاكمية الإلهية» وما له من أبعاد
سياسية يجعل منه كتاباً ذا أهمية متعددة تنعكس على جوانب مختلفة،
منها : جانب دراسة وتحليل المفاهيم وإعادة صياغتها وتركيبها؛ ومنها:
محاولة تتبع آثار المفاهيم وصياغتها في الحياة الفكرية والحياة العملية في
الوقت ذاته، إلى غير ذلك من الجوانب المعرفية الهامة. صحيح أنه من
الصعب أن يقال: أن هذه الدراسة قد أعطت كلمة فصلا في هذا الموضوع،
الخطير، المتعدد الجوانب، لكن نستطيع أن نقول: إنها فتحت باب المراجعة

والدراسة والتحليل والنقد لهذا المفهوم ولشبكة المفاهيم المتعلقة به والمتصلة به بأي نوع من أنواع الاتصال، كما فتحت باب إعادة القراءة والنقد والتمحيص والتحليل والتفكيك وإعادة التركيب إن أمكن لهذا المفهوم ذي الآثار الخطيرة في حياتنا الفكرية الإسلامية المعاصرة. وهذه المقدمة تحاول مع الكتاب أن تسهم في توضيح هذا المفهوم واستجلاء بعض جوانبه في إشارات ومعالم نأمل أن تساعد على تحقيق هذا الغرض. ولذلك فإننا نرجو ملاحظة ما يلي:

أن هذه المقدمة لن تقف طويلاً عند تحليل جوانب المفاهيم اللغوية والاصطلاحية، لأن الباحث قد قام مشكوراً بتحديد تلك المعالم ولا أقول في بيانها لأن المفاهيم تختلف عن المصطلحات. ففي حالة دراسة مصطلح من المصطلحات قد يكفي الباحث أن يقوم بتحديد جذر المصطلح اللغوي والإلمام بمعانيه اللغوية ثم الانطلاق نحو استخدامات أهل الاصطلاح له في جوانبه المختلفة لبيانها والخروج بتصوير بعد ذلك للمصطلح وما يعنيه وما يدل عليه، ويمكن للباحثين - بعد ذلك - أن يصلوا في المصطلح إلى نوع من التحديد الذي قد ينتهي بوضع حد جامع مانع له أو في أقل الأحوال يساعد على تقديم تصور برسم واضح المعالم له، لكن المفهوم - كما هو الحال - في «الحاكمية الإلهية» يمثل جذراً فلسفياً وفكرياً وثقافياً متشعب الفروع، ومتعدد الاتجاهات تمثل فروعها واتجاهاتها المختلفة دائرة فلسفية وثقافية تتسع أو تضيق لكنها في سائر الأحوال تتصل اتصالاً وثيقاً بالنسق المعرفي الذي ينتمي المفهوم إليه، فيتصل المفهوم بمصادر معرفة النسق ونظرية معرفته وفلسفتها ومقاصدها وإطار النسق المرجعي وواقعه التاريخي إن كان له تجسيد في التاريخ. ومن الصعب أن لا يكون لمفهوم يتخذ شكل المفهوم حقيقة ومعنى، خبر أو تجسيد في التاريخ، كذلك لا بد من تتبع آثار المفهوم ونتائجه ثم مصادر بنائه وموارده في مختلف جوانب الحياة الفكرية والثقافية. إن بعض المفاهيم الإسلامية تكاد تمثل في حد ذاتها ما يمكن تسميته بتخصص دقيق في لغة العصر التعليمية، بحيث لو أريد تدريسه

وشرحه وتعليمه بالمستوى الذي ذكرنا لاقتضى ذلك عشرات الساعات الدراسية وربما مئات منها، خاصة إذا كان هذا المفهوم في مستوى مفهوم «الحاكمية الإلهية» في المنظور الإسلامي.

وليتبين صدق هذه الدعوى أود أن أشير إلى شبكة المصطلحات أو المفاهيم الفرعية التي يستدعيها مفهوم «الحاكمية الإلهية» عند النظر فيه ومحاولة تحليله، والتي يعتمد عليها في تركيبه، ولا بد من توضيح نفسه ضمنها إذ من الصعب إن لم يكن من المتعذر، أن يُلَمَّ بمفهوم الحاكمية الإلهية دون فهم تلك الشبكة والإلمام بها.

ومن هذه المفاهيم، مفهوم الدين، ومفهوم العبادة، ومفهوم الحكم بمعانيه المختلفة سواء أكان شرعياً أو تشريعياً أو عرفياً، ومفهوم الألوهية والخلق والعبودية والدنيا والآخرة، والخطاب، والحلال والحرام، والمطلق والنسبي، والعام والخاص، والشرائع، ووحدة الدين، والأرض، وغير ذلك من أمور تتعذر الإحاطة بجوانب المفهوم المختلفة بدون الإلمام بها وتصنيفها. فبقطع النظر عن تفاوت طبيعة ومستويات تلك المصطلحات والمفاهيم المحيطة بالمفهوم الأصلي موضوع الدراسة والتحليل لا يمكن الإلمام بحقيقته وفهمه دون إلمام بها بأي مستوى من مستويات الإلمام التي يقتضيها فهم ودراسة ذلك المفهوم.

إن الناس كثيراً ما يخطئون في استعمال المفاهيم بمجرد الربط بين الجذر اللغوي الذي يمثل عنوان المفهوم وبين بعض أنواع الاستعمال، فيشيع بعض ما يمكن أن نعتبره «وعياً كاذباً» عند إمعان النظر في تلك المفاهيم، وما هو بوعي في حقيقته. ومفهوم «الحاكمية الإلهية» خلال العقود القليلة الماضية جرى تداوله بأشكال مختلفة ومن مدارس فكرية متنوعة بذلك الشكل الذي ألمحنا إليه. فبعضهم تناوله كما يتناول الشعر بحيث يكفي لمتناوله أن يقوم بتحليله ثم تركيبه ليكتشف معناه وبعضهم تناوله باعتباره واحداً من أهم مقاصد الشريعة يمكن أن يعتبره أصلاً يفرع عليه أحكاماً وفروعاً، إلى غير ذلك من أنواع التناول التي لم تزد المفهوم إلا غموضاً. وقد حاول الكاتب

جزاه الله خيراً أن يخرج هذا المفهوم من تلك الدوائر أو الدروب الضيقة. وهذه المقدمة ستعمل على التنبيه إلى ما أحاط ويحيط بهذا المفهوم من إن هناك أموراً لا بد من توضيحها لتستطيع هذه المقدمة أن تتضافر مع البحث القيم في تقديم التصور المناسب لهذا المفهوم؛ فإن الاضطراب والارتباك في تناول هذا المفهوم من مختلف المدارس ظل سائداً في هذه الدراسات حتى الآن. ولكي لا نسقط في وهم الحسم بقول الكلمة الأخيرة في هذا المفهوم الخطير، فإننا نود أن ننبه إلى بعض المعالم التي تعتبر ملاحظتها والوقوف عليها ضرورية لفهمه، فإن لم يكن ذلك، فإنه يكون مساعداً للوصول إلى نوع من الدقة والتحديد في مقارنته.

(أ) أود أن أنبه إلى دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبي الأنبياء، فقد خاطبه الله جل شأنه قائلاً: « .. إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » (البقرة: ١٢٤). فهناك إذا إمامة بجعل جاعل هو الله سبحانه وتعالى. وهناك ظلم وعدل، كقيم لا بد أن تعرف. وظالم لنفسه من البشر، ومقتصد، وسابق بالخيرات. والإمامة في هذه الآية الكريمة تأخذ شكل عهد إلهي بين الله - جل شأنه - وبين الإنسان. عهد لا يناله الظالمون ولا يقتربون منه ولا ينبغي لأحد أن يقربهم منه بحال، فضلاً عن أن يمكنهم منه. وتبرز قيمة العدل هنا كمقابل للظلم باعتبارها الهدف الأول - بعد التوحيد - من أهداف الأنبياء، ولن يقومون في الناس بالإصلاح مقام الأنبياء من بعدهم. وهنا تبرز جملة من المصطلحات والمفاهيم الفرعية؛ إمامة قائمة على جعل إلهي، وعهد إلهي. وظلم وظالمون يقابله عدل وعادلون، إلى غير ذلك. ويفتح هذا الخطاب من الله سبحانه وتعالى إلى أبي الأنبياء إبراهيم نافذة على أولئك الذين جعلهم الله أئمة يهدون بأمره من الأنبياء والمرسلين، الذين أمرنا بالإيمان بهم وأمرنا أن نقتدي بهداهم « . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » (السجدة: ٢٤)، « وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »

(الفرقان: ٧٤)، «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ» (الأنعام: ٩٠).

(ب) تبدو في عملية الإمامة وارتباطها بالجعل الإلهي، فكرة الاصطفاء الإلهي. فهذه الفكرة ينبغي أن تلاحظ مع عملية الجعل والاختيار والاصطفاء الفردي: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» (الحج: ٧٥)، اصطفاء يرتبط بمواصفات محددة لتفهم بها عملية اصطفاء الله - تعالى - لشعوب وأمم « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » (آل عمران: ٣٣) وعملية الاصطفاء الإلهي لأفراد يكونون أنبياء ورسلا وأقوام يختارون ليكونوا ميدان نشاط هؤلاء الأنبياء والرسل وميدان قيادتهم وميدان هدايتهم. هو أمر لا بد من ملاحظته ونحن نتحدث عن «الحاكمة الإلهية» وهو اصطفاء لأداء مهام محددة استخلاقية.

(ج) لا بد لنا من أن نرجع قليلاً إلى الوراء للنظر في تاريخ النظم القانونية والتشريعية والاجتماعية التي عرفتها البشرية في مختلف عصورها، لنجد أن هناك نظاماً قد قامت على أساس «حكم إلهي» أو «حاكمة إلهية» بشكل من الأشكال، نظاماً كثيرة عرفها السومريون والأكاديون وعرف بعضها البابليون، وعرف بعضها الفراعنة وغيرهم من أبناء الحضارات القديمة، كما نجد نظاماً كانت تحكم باسم الشعب، شعب المدينة أو القبيلة أو سوى ذلك. وإذا نظرنا في ذلك التاريخ ورأينا ولاحظنا مسيرة فكرة «الحكم الإلهي» أو حكم من خارج الإنسان ولاحظنا مسيرة ما يقابله فإن ذلك سيساعد كثيراً على الوعي بطبيعة فكرة الحاكمة بإطلاق. فكثير من النظم والقوانين القديمة نسبت إلى «الدين» بشكل من الأشكال فكانت بعض نظم الحضارات القديمة تصدر عن الكهنة وبعضها يصدر عن الملوك أو القادة. فما يصدر عن الكهنة يعتبر أنه وحي الآلهة، أو ظل الإله في الأرض. ويعطى هذا النوع من القواعد أو القوانين أو الأوامر سلطة إلهية، أو قوة في هذا المجال. وفي مقابل ذلك

عرفت بعض الشعوب القديمة وخاصة شعب روما فكرة اعتبار التشريع أو القاعدة التشريعية عملاً إنسانياً يصدر عن الإنسان نفسه ولا يصدر عن الآلهة. وبذلك عبروا عن رغبتهم في فصل الدين عن القانون في روما فصلاً لا يزال يعتبره كثير من فقهاء القانون من أهم الخصائص المميزة للقانون الروماني عن أغلب النظم القانونية القديمة.

ولقد رد بعض مؤرخي النظم القانونية والاجتماعية الدور الأول في اتخاذ الملكية نظاماً عاماً في حضارة بلاد ما بين النهرين القديمة إلى الدين. وقد كانت المدن السومرية تحكم في الأصل حكماً دينياً، ولكن الحاكم المدني يعتبر خليفة الإله في الأرض، وهو الكاهن الأكبر في المملكة، وبالتالي هناك ما يشبه التوحيد بين السلطتين الزمنية والدينية لديهم. وتنفيذ الأحكام باسم الإله في تلك الحضارة القديمة، بل إن اختيار الملك ذاته كان في تلك الحضارة ينسب إلى الإله، فكان الإله هو الذي يختار الملك بنحو من الأنحاء.

أما في عهد الملوك الأكاديين فقد برزت عندهم فكرة الحكومة العالمية ووصف الملك الأكبر بأنه ملك جبهات العالم الأربع، ثم اعتبر الملك نفسه واحداً من الآلهة، مسؤولاً عن تنفيذ إرادة مجموع الآلهة في الأرض فهو تعبیر عن إرادة الآلهة ولا يعمل إلا بوحى منها وهو مسؤول أمام الآلهة عن أخطاء رعاياها وانحرافاتهم وبذلك يفرض على رعايا الآلهة طاعة مطلقة في الغالب.

أما في دولة الحيثيين في بلاد ما بين النهرين فقد تغير الحال قليلاً عما كان عليه في الملكيات الكبيرة ذات القانون الإلهي في مصر أو في بابل ليصبح الملك قائماً على دعائم القوة فقط، ولتصبح شرعية وجود الملك وطاعته قائمة على كونه قوياً منتصراً قادراً على تحقيق الانتصار على سواه، أما الناحية الدينية فالملك لا يعتبر إلهاً ولا قائماً مقام الإله في هذه الدولة لكنه يعتبر مزوداً بمدد إلهي ما دام قادراً على الانتصار. ويمكن أن يدخل بعد موته في عداد الآلهة ويعامل على أنه واحد منهم بعد ذلك أو يعتبر وسيطاً.

كما كان الحال عند البابليين - بين الآلهة والناس وتعتبر أحلامه ومناماته وتفاؤله وتشاؤمه وسيلة من الوسائل التي يعبر بها عن صلته بالآلهة.

وقد يكون أهم الشعوب التي لا بد من التذكير - بتراثها في مجال الحاكمية الإلهية - العبرانيون ثم بنو إسرائيل. والعبرانيون مصطلح أشمل وأعم من مصطلح بني إسرائيل، فهو في أرجح أقوال المؤرخين يتناول كل أولئك الذين عبروا الفرات باتجاه فلسطين وغيرها واستقر بعضهم في فلسطين واختلط بالساميين واعتنق عقائدهم وذهب بعضهم إلى مصر وأقام فيها. فالعبرانيون أو العبريون منهم مصريون ومنهم ساميون قادمون من العراق تركوا بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين وإلى مصر في الدرجة الأولى أو إلى مناطق مجاورة بالنسبة للبعض.

وقد قضى العبرانيون فترة طويلة في تنقل وفي حالة أشبه ما تكون بحالة البداوة يضربون في الأرض سعياً في ابتغاء الكلاً ويميلون إلى الاستقرار عندما يجدون سبله ووسائله والمياه المساعدة على ذلك. وقد كانوا في تلك المرحلة قبائل: تتكون القبيلة من مجموعة من الأسر التي تعتبر نفسها ذات أصل واحد. والرابطة الأساسية في هذا النوع من النظم القبلية هي رابطة الدم، التي قد تكون في بادئ الأمر، في حالة صغر القبيلة، حقيقية، ولكن بعد أن تتداخل في كيان القبيلة عناصر أخرى تقتضي القبيلة انخراطها في سلطتها وترتضي هي ذلك يصبح هناك شيء أوسع من رابطة الدم فيما بين هؤلاء الذين يكونون القبيلة المختلطة. والمرجع في حكم القبيلة سواء في أعراف العرب أو في أعراف غيرهم ممن عاشوا حياة بدو هو شيخ القبيلة، فهو الحاكم فيهم وهو صاحب السلطة المطاع من القبيلة بإرادتها ورضاها. أما العبرانيون فكان لديهم شيوخ لقبائلهم، لكن الملفت للنظر أن كثيراً من هؤلاء الشيوخ كانوا يلقبون بالنصوص فيقال نصي، أو فلان (نص) يراد به شيخ أو رئيس لقبيلة باعتبار أنه قد اختير من نواصي القوم وأشرفهم فهو نص أو نصي باعتباره قد تم اختياره من النواصي أو من الرؤوس والأشراف^(١).

(١) تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، محمد بدر.

وبقيت قبائل العبريين في بلاد كنعان «فلسطين» واختلطت بالساميين من أهل الجنوب واعتنقت عقائدهم ثم هاجر إسرائيل وبنوه إلى مصر حيث كان يوسف عليه السلام قد سبقهم إليها إثر كيد إخوته له ثم أصبح وزيراً لفرعون فيها. ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه الهجرة، وإن كان منهم من يميل إلى تحديدها بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد، وأقام بنو إسرائيل في شرق الدلتا في مصر رعاة في أول الأمر ثم زراعاً مستقرين استقراراً امتد في الزمان عدة قرون. وإذا تجاوزنا هذه المصادر التي تقوم على نوع من الافتراضات وحاولنا أن نجد ما يمكن الاعتماد عليه بشكل أو بآخر نجد بين أيدينا نصوص العهد القديم التي حددت الفترة بين وصول إبراهيم وهجرة إسرائيل وبنيه بما يزيد على قرنين أو بالأحرى مائتين وخمسة عشر عاماً كما في سفر التكوين (١٢/٤) حيث ورد قوله: كان عمر إبراهيم خمسة وسبعين عاماً عندما ترك حران إلى فلسطين وبعد خمس وعشرين سنة ولد إسحق كما في (٢٦/٢٥)؛ وعندما كان عمر اسحق ستين عاماً ولد له يعقوب كما في الإصحاح (٤٧/٩) وأن يعقوب قد وصل إلى مصر وعمره ١٣٠ سنة، وحين شاعت حكمة الله جل شأنه اصطفاً بني إسرائيل وإخراجهم من حالة الشتات والقبلية والتشردم ليكونوا قوماً وليحملوا التوراة وأذن بخروجهم من مصر فاختار لهم موسى كلمه عليه السلام ليقوم بهذه المهمة وليؤدي هذه الرسالة، وليوحد قبائل بني إسرائيل ويجعل منهم شعباً ويجعل منهم قوماً ويوجد بينهم رابطة عقيدة ودين. كان لابد لتوحيد القبائل والأسباط الإسرائيلية وجعلها شعباً واحداً من كثير من الجهد الذي بذله موسى وأخوه هارون عليهما السلام منذ الخروج ببني إسرائيل من مصر ومجاوزته بهم البحر. وكان من أبرز الوسائل التي اتبعت في توحيد هذه القبائل وتحويلها إلى شعب الالتفاف الذي صاروا إليه حول موسى عليه الصلاة والسلام باعتباره رسولا إلى بني إسرائيل فهذا الالتفاف جعل من جميع الملتفين حوله المتقبلين لرسالته جزءاً من شعب الله وجعل الأرض المقدسة التي بارك فيها وأخرجهم إليها أرض مملكة الله، فمن أراد أن يكون ضمن شعب الله وينضم إلى مملكة الله

من بني إسرائيل فليس عليه إلا أن يتقبل « حاكمية الله » المباشرة، وأن يتقبل فكرة الإيمان بموسى وأخيه هارون عليهما السلام نبيين مرسلين من الله - جل شأنه - يحملان إلى الشعب رسائله وكلماته ، وأن يتقبل الخروج إلى الأرض المقدسة والإقامة فيها والارتباط بها وأن يتقبل ما ورد في التوراة وما ورد في الألواح التي جاء بها موسى عليه السلام من ربه. وقد ارتبط ذلك بأن الله سبحانه قد استجاب لكل ما كان ذلك الشعب يطلبه من عطاء إلهي فحينما طلبوا الماء فجره لهم، وحينما طلبوا طعاماً معيناً هبأه لهم وأنزل الله عليهم المن والسلوى « .. فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا » (البقرة: ٦٠) وربط بين العطاء الإلهي المعجز وبين الخوارق الحسية التي أعطاها موسى وبين العقوبات الصارمة، والتشديد في وجوب المتابعة منهم حين يرفضون طاعة الله جل شأنه. « وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ بَوَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » (الأعراف: ١٧١)، فإذا رفضوا أخذ ما أوتوا جاءتهم مثل هذه الخوارق لينسجم ذلك العطاء الإلهي المباشر مع تلك العقوبات الصارمة التي تشير إلى أن هذا الشعب وقد أعطي ما أعطيه واستجاب الله لكل ما طلبه وأراه من خوارق آياته ما أراه لم يبق أمامه إلا الخضوع والاستسلام والطاعة المطلقة للإله جل شأنه، ومع ذلك فقد كان بنو إسرائيل كثيري التمرد، كثيري الخروج على هذه الحاكمية الإلهية المباشرة. ويكفي أن نشير إلى حادثة ردتهم الجماعية حيث ارتدوا بمجرد أن غادرهم موسى وعبدوا العجل بالرغم من وجود أخيه هارون بينهم فكانت ردة جماعية من قبل هذا الشعب المختار عن تأليه الله وعبادته والخضوع لحاكميته، بل كانوا كثيراً ما يشورون على موسى ويلومونه على إخراجه لهم من أرض مصر وحرمانهم من الأطعمة المصرية وهناك في سفر الخروج جملة من الإصحاحات تشير إلى هذا الأمر. يمكن النظر إلى الإصحاح (٩/٣٢ و ٣٣/٥) وغيرها. كما وردت في القرآن الكريم إشارات إلى هذا. وفي سفر الخروج يؤكد الإصحاح (٣/١٧) قول هارون لموسى: « أنت تعلم كم يميل هذا الشعب إلى فعل الشر »، حين عاتبه موسى على تخليته بينهم وبين عبادة

العجل، ثم شاعت إرادة الله أن يحدث لهم كثير من الأمور وتقع فيه جملة من التطورات خاصة بعد وفاة موسى وأخيه هارون. فلقد تفرقت كلمتهم من جديد واختلت نظمهم وانحلت أواصر التضامن فيما بينهم وانخرط بعضهم في شعوب مجاورة وتأثر بعضهم بتلك الشعوب المجاورة حتى بلغوا مستوى عبادة الأصنام كما يشير إلى ذلك العهد القديم في كتاب «القضاء». وفي تلك المرحلة انتشرت بينهم الفتن والشدائد. وكلما قام فيهم نبي لدعوتهم للوحدة والتكاتف من جديد أصابه منهم ما أصابه فقتلوا الكثير من أنبيائهم وتمردوا على سلطانهم وارتضوا لأنفسهم تلك الحالة السيئة التي كان الله سبحانه وتعالى قد أنقذهم وأخرجهم منها. فمروا بجملة من العهود منها ذلك العهد الذي عرف «بحكم القضاء» ثم ذلك العهد الذي عرف بعهد الملوك.

وقد بعث الله لهم في مرحلة من المراحل داوود وسليمان كخلفاء «يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ...» (ص: ٢٦). فانتقل الأمر من مرحلة «الحاكمية الإلهية» المباشرة إلى حاكمية استخلاف أنبياء ومرسلين يحكمون في ذلك الشعب بشريعة الله وبما جاء في التوراة باعتبارهم رسلاً مستخلفين عن الله. وإذا لم تقف عمليات تمردهم وانحرافهم في إطار ذلك الأمر طلبوا من الله أن يجعل لهم ملوكاً كغيرهم من الناس تأثراً بمجاوريتهم، وورغبة منهم في محاكاتهم، كيف لا وقد حاكوا أولئك الأقوام الذين جاورهم في بعض الفترات والمراحل في عبادتهم الأصنام فكيف لا يوافقونهم في هذا؟! وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر حين قال جل شأنه: «إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ أَرْبَعَةٌ لَنَا مَلَائِكَةٌ نُنزِّلُ فِي سَكِينٍ اللَّهُ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا» فجعل الله لهم طالوت ملكاً «قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ...» (البقرة: ٢٤٦ و ٢٤٧).

فإذا نستطيع أن نقول: إنه في بني إسرائيل قد عرفت «الحاكمية الإلهية» بشكل فيه كثير من التحديد فهناك كتاب سماوي أنزل وألواح أنزلت مكتوبة نصاً (زعموا أنه سبحانه قد خطها بإصبعه)، وقد أمروا وكلفوا بتطبيقها،

وهناك أنبياء مرسلون يقومون على عملية التبليغ والتوسط بينهم وبين الله جل شأنه ولكنهم جميعاً يشتركون في ملاحظة خوارق العطاء، وتلك المكرمات الإلهية المباشرة، وفي الوقت نفسه يشتركون في ملاحظة العقاب الشديد عندما يقع انحراف عن تطبيق التوراة أو تطبيق الشريعة، وفي العهد الملكي لهم وعهد الاستخلاف استقام لهم الأمر قليلاً في عهد داوود ثم في عهد سليمان ولكن بمجرد وفاة سليمان عليه السلام حاق بالقوم ما أنذرهم الله جل شأنه به من أن انحرافهم سوف يسرع بهلاكهم. وهكذا احتل الآشوريون عاصمة إحدى المملكتين، إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م وضموها لامبراطوريتهم واستولى نبوخذ نصر على مملكة يهوذا ودمر المعبد سنة ٥٨٧ ق.م وأخذ أهلها رقيقاً إلى بابل لتبدأ مرحلة جديدة تمر بعدها كل تلك القرون المتطاولة والتي انصهر فيها بنو إسرائيل في كل شعوب الأرض ودخلوا في كل الأديان المشتركة والموحدة واعتنقوا مختلف النحل ليعودوا اليوم يتحدثون عن أرض الميعاد وعن إقامة مملكة إسرائيل وإقامة الهيكل والعودة إلى ما كان عليه الآباء بناءً على ما زعموا أنه كان وعداً إلهياً قد قطع لهم بأن يرثوا هذه الأرض المقدسة (وما ورثتهم ذاك أم ولا أب).

الحاكمية الإلهية في التصور الإسرائيلي:

يمكن أن نحدد أهم المبادئ الأساسية «للحاكمية الإلهية» كما هي في التصور الإسرائيلي:

المبدأ الأول: بأن الله - جل شأنه - قد اختار شعبه من بني إسرائيل، واختار تبارك وتعالى أن يكون الحاكم المباشر لهذا الشعب، وأن يكون من بين أبناء هذا الشعب أنبياء ورسل يتصلون بالله ويأخذون منه تعاليمه ليبلغوها لهذا الشعب وهي تلك التعاليم التي اشتملت عليها الأسفار الأولى من العهد القديم وبخاصة سفر «الخروج والتثنية» باعتبار أن تلك الأسفار هي كلام الله المباشر للشعب. كما أنه جل شأنه قد قدم على لوحين الوصايا العشر

التي كتبها بنفسه جل شأنه وخطها بإصبعه كما تقول بعض نصوص التوراة في سفر «التثنية» ليقدمها رسوله موسى إلى شعبه المختار ليقوم بتنفيذها وتطبيقها، وأن هذا القانون الذي جاء إنما هو قانون الله وكلامه لا يملك أحد من الناس بما في ذلك الأنبياء والمرسلون الذين حملوا الرسالة من الله إلى الشعب لا يملكون التدخل فيها بالتغيير أو بالإضافة أو بالنقص أو بالتأويل فليس لأحد غير الله جل شأنه رسولاً كان أو نبياً أو حاكماً أو حبراً أو ريبياً أن يقوم بعملية نسخ أو تبديل لشيء من كلام التوراة أو إضافة شيء إليه.

المهدأ الآخرة: أن هذه الحاكمية أو هذا الاختيار يجعل من شعب إسرائيل أقرب الشعوب إلى الله تعالى، بل أبناء الله وأحباؤه وأنه ليس لأحد من العالمين مكانة كمكانتهم وهذا يعطيهم صفة خاصة تجعل منهم شعب الله، ويعطي أرضهم مكانة القداسة بحكم تقديس الله جل شأنه لهم. وكانت هذه الحاكمية بهذا الفهم وبهذه الطريقة واضحة مفهومة لديهم قبل أن ينتقلوا إلى مرحلة «القضاة» ثم إلى مرحلة «الخلفاء» ثم «الملوك الأنبياء» أو «الخلفاء الملوك» كما هو الحال بالنسبة لنبي الله سليمان. لذلك نستطيع أن نقول: إن تاريخ هذا المفهوم يتضح أكثر ما يتضح في تاريخ بني إسرائيل، وفيما كانوا عليه بالصورة التي أشرنا إليها. وبذلك نستطيع أن نقول: إن مفهوم «الحاكمية الإلهية» في النظام الديني اليهودي قائم على تعامل إلهي مباشر مع قوم معينين هم بنو إسرائيل أعطاهم من العطاء كل ما يريدون وتشتيه أنفسهم وفي الوقت نفسه قابل هذا العطاء الخارق بعقاب خارق عند الانحراف والمعصية. فالعلاقة بين الله وشعبه المختار هي علاقة عهد مباشر ولذلك سميت التوراة بالعهد سواء قلنا العهد الجديد أو القديم فهو عهد بينهم وبين الله أو هكذا تصوره النصوص التي أشرنا إليها.

تطلع بني إسرائيل إلى التخفيف

وإمتابعة هذا نستطيع أن ننتقل إلى مؤشر آخر مهم في هذه الحالة وهو أن

وحدثه وله من الشتات وإخراجه من ذل العبودية ولكن ذلك الشعب لم ير
نعمة الله جل شأنه عليه ولم يرع حق الله - جل شأنه - عليه في ذلك كله.

لعله اتضح مما تقدم بعض آثار مفهوم «الحاكمية الإلهية» في العقل
اليهودي حيث قد انعكس المفهوم وظلاله على كل جوانب الحياة لديهم ،
فانعكس على رؤيتهم الكلية وتصورهم وخصائصه ومقوماته ومفاهيمهم
للإنسان والشرعية والكون والحياة والعبودية والألوهية والنظام العام. فكل
هذه الأمور قد تأثرت بمفاهيم «الحاكمية الإلهية» عندهم.

الحاكمية الإلهية في النصرانية

وهنا تتضح الحاجة إلى مجيء رسول آخر ورسالة أخرى تقوم بعملية
التصحيح وتقويم تلك الآثار التي نجمت عن تأثير العقل اليهودي بكل تلك
المنظومة المفاهيمية التي جعلته على تلك الحالة من الاضطراب؛ اضطراب
العلاقة بالله ، واضطراب العلاقة بالكون واضطراب العلاقة بنفسه واضطراب
العلاقة بأنبيائه واضطراب العلاقة بجيرانه، فكان أن أرسل الله جل وعلا
عيسى عليه الصلاة والسلام ليهدي - كما قال - الخراف الضالة من بني
إسرائيل وليصدق الذي بين يديه فيقوم بعملية استرجاع له وتمحيص ونقد
وتمييز للصحيح منه عن الفاسد، فكان ابن مريم عليه السلام، وقد أرسل لبني
إسرائيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم
وليبشر برسول بعده اسمه أحمد يأتي بالشرعية كلها ويأتي بالناموس الأكبر
والرسالة العامة الشاملة ليخاطب البشرية كلها، وقد أقر السيد المسيح عليه
السلام ما جاء في التوراة فقال: « لا تظنوا أنني جئت لأنسخ الشريعة أي
التوراة، ما جئت ناسخاً بل مصدقاً لما فيها وأقولها لكم حقيقة إلى أن تزول
السماء والأرض لا ينسخ حرف من الشريعة ولا نبرة على حرف حتى يتحقق
كل شيء » وقال عليه السلام: « زوال السماء والأرض أكثر سهولة من أن
نسقط نبرة على حرف من الشريعة »، ولكن هذا التأكيد من السيد المسيح